ظلّ الحكايات

تأليف: اصدقاء القلم

مبادرة فراشة أكتوبر

أُهدي قصّتنا إلى كلّ شخصٍ يقرأُ

كلماتنا، إلى كلّ طفلٍ يتيمٍ وإلى كلّ

شخصٍ يملكُ جوهرةً لكن لايقدّر

قيمتها.

نوجهُ شُكرنا إلى كلّ قارئٍ، وإلى كلّ

شخصٍ أخذ قصّتنا طريقاً لهدايته

وسبباً في نيل الرّضا الّذي أمرنا الله

به.

لم يكن عبثاً" الجنّة تحت أقدام

الأُمّهات"

تقول بعض الأقاويل أنّه يوجد

ظلٌّ يسمى "بظلِّ النّجاة" لكنّني

كنت أنتقد ذلك، فهل يوجد ظلّاً

قادراً على نجاة شخص؟

لكن بعد أن راودني ظلُّ فقيدتي

وكان سبباً في هِدايتي إلى

اكتشاف الحقائق، أدرك أنّي

كنتُ مخطأةً في حقّ الظّل.

اسمي ليس مُهمًّا، لكنّني أبلغ من العمر تسعة أعوام، ظُلمت في هذه الحياة كثيرًا، فقدتُ والدتي في عمر السّادسة، وأُعاني لفُقدانها كثيرًا، فوالدي العزيز جلب لي أُمًّا ثانيةً، لا لن أقول أُمًّا بل وحشًا على هيئة بشر. قامت بقتلي منذ أن دخلت منزلنا، هي لم تقتلني من الخارج بل قُتلت روحي، عندما مزّقت ثياب والدتي وأشعلت بصورها مدفئتها اللّعينة.

لم أكُن مثل بقيّة الأطفال، يعيشون في أكناف عائلاتهم ويتمتّعون بجميع الحُقوق، بل كُنت مُجرّد بائع حلوى في شوارع المدينة.

إمّا أُضرب حدّ الانهيار أو أُرزق بأشخاصٍ يخافون الله ويجبرون خاطر طفلٍ يتيم.

دخلت إلى هذه المدرسة بعد مُعاناة عظيمة، وتهديداتٍ لا تُعد، تقول لي:" إن لم تجلب لي الأموال، سأجعلُ والدك يَحرمُك من الدّراسة وتعود عاملاً تحت أقدام العالم".

تعذّبتُ كثيراً حتّى وصلت إلى هذه المدرسة، لكي أتعلّم، وأُحقّق الحلم الّذي بنيته مع والدتي.

في الصّباح دراسة، وتعب، وبعدها أعود إلى مكاني الوحيد ألا وهو الشّارع أشتري قليلاً من الحلوى من العمِّ" قاسم" هو كان أصدق رجلٍ في حياتي، بأوقاتٍ كُنت أناديه بأبي، فهو ليس مجرّد رجلٍ عاديٍّ وحسب، بل كان عوض الله بعد معاناةٍ وشقاء.

وفي أحد الأيّام الشّاقة وهذا ليس بجديد كان الجو بارداً جدّاً لدرجةٍ أنّ أطرافي تخدّرت ولم أشعر بها أبداً.

ذهبت مخيّلتي إلى فتاةٍ تُشبه بائعي الكبريت وشعرتُ بها تسألني: من أين لي أن أحضر أفلامٍ كرتونيّة؟ سأُجيب بأنّ أُمي العزيزة بعد أن بلغتُ الثّلاث سنوات كانت تنتقي بانتباهٍ شديد!

سنعود الآن إلى وضعي الحالي فأنا أتجمّد من البرد، لأسمع صوتاً حنوناً يمنح الدّفئ في وسط البرد.

بُنّي: ماذا تفعل أنتَ هنا؟! البرد قارسٌ تعال معي ستدخل منزلي اللّيلة وتبات عندي وسأحضر لكَ حساءً طازجاً ليُدفئك.

والآن لولا وجودك أيّها العم قاسم ماذا كنت سأفعل؟

تنهّدتُ وأنا أتذكّر اللّيالي الباردة، كنتُ أظنُّ أنَّ العالم كلّه قد أغلق أبوابه في وجهي، حتّى يأتي العم قاسم كعادة الأبطال الّذين لا يلبسون عباءة... بل يلبسون قلباً واسعاً.

وفي اليوم التّالي، ذهبت إلى المدرسةِ بثوبٍ أثقل من حجمه، وثقلٍ أكبر من عمري.

كنتُ أتظاهر بأنّ الأمور بخير، لكنّ وجهي كان يخونني دائماً.

وبينما كنتُ أعبر الباحة، لمحتُ فتاةً لم أرها من قبل، تقف قرب شجرة العنب اليّابسة خلف الملعب، كانت تحمل كتاباً كبيراً أسود الغلاف، وعيونها تتحرّك على الصّفحات بسرعةٍ غريبة، كأنّ الكلمات تُسابق أنفاسها.

لم أشعر أنّني أُراقبها، حتّى التفتت هي فجأةً كأنّها أحسّت بوجودي.

حدّقت بي لثوانٍ ثم ابتسمت تلك الابتسامة الّتي تُشبه نافذةً تُفتح في غرفةٍ مغلقة.

"أنتَ عليّ، صحيح؟"

هززتُ رأسي، وأنا أحاول ألّا أبدو مرتبكاً.

"أنا لارا... الطّالبة الجديدة. سمعت أنّكم ستقرؤون كتاباً قديماً في الحصّة القادمة... هل صحيح؟"

لم أجب فوراً، كان هناك شيئاً في صوتها يجعل القلب يأخذ خطوةً نحوها دون إذن.

عادت لارا تنظر إلى الكتاب في يدها، وقالت دون أن ترفع رأسها:

"أنا أحبّ الكتب... خاصةً الكتب الّتي تُخفي قصصاً لم يُكملها أحد."

لم أفهم ما تقصده، لكن قبل أن أسألها، دقّ الجرس بصوته المزعج.

دخلنا الصّف، وجلس كلّ واحدٍ في مكانه.

الكتاب القديم كان موضوعاً على الطّاولة، ينتظرنا كما لو أنّه ينتظر اعترافاً.

جلست لارا بجانبي دون أن تطلب إذناً، وفتحت دفترها ببطءٍ وكأنّها تفتح سرّاً.

قالت المعلمة:

"اليّوم سنبدأ بتحليل هذا الكتاب... هيّا يا أصدقاء."

كانت تلك هي اللّحظة الأولى الّتي تلتقي فيها لارا بالكتاب... وبقصّتي أيضاً، دون أن تعرف أنّها ستُصبح جزءاً منها.

فتحتُ الصّفحة الأولى بصوتٍ خافت:

"اسمي ليس مهماً..."

وبينما بدأتُ أقرأ، لاحظتُ شيئاً غريباً.

لارا لم تكن تقرأ الكلمات.

كانت تنظر إليّ.

إليّ أنا.

نظرةً لم أفهمها... لكنّها جعلت قلبي يرتجف كما لو أنّ أحدهم

كشف الغطاء عن جرحٍ طال إخفاؤه.

ولم أكن أعلم...

أنّ تلك اللّحظة ستكون بداية تغيّر كلّ شيء.

بينما كنّا أنا ولارا نجلس أمام الكتاب القديم، لاحظت شيئاً

غريباً...

ظلّي لم يعد مجرّد شكلٍ على الأرض، بل بدأ يتحرّك ببطءٍ قبل أن

أتحرّك أنا، يشير إلى أماكن معيّنة في الصّف، ثم يختفي لحظاتٍ

قصيرة ويعود وكأنّ شيئاً ما يريد أن يريه لي.

في البداية ظننت أنّني أتخيّل، لكن لارا لاحظت ذلك أيضاً

وقالت بهدوء:

"هل ترى ذلك؟ الظّل... يريد أن يخبرك بشيء."

بدأنا نتّبع تحركات الظّل بحذر، كان يقودنا نحو زاويةٍ قديمةٍ من

المكتبة، حيث الغبار يغطّي رفوف الكُتب المنسيّة.

ظل الحكايات

هناك، بين كومةٍ من الكتب القديمة، كان الكتاب الّذي قرأناه مخبّأً بعناية... الكتاب الّذي يحتوي على قصص الأطفال المفقودة، قصص كتبها طلّاب المدرسة قبل سنواتٍ ونُسيت.

ابتسمت لارا وقالت:

– "الظّل لم يُرشدك فقط إلى كتاب... بل إلى ذكرياتٍ وأحلامٍ ضائعة تحتاج لمن يعيدها للحياة."

لم أكن أفهم تماماً، لكن شيء في صمت لارا جعل قلبي يهدأ، كان الكتاب يهمس لنا، كلماتٌ تتلألأ على الصّفحات وتختفي ثم تظهر، وكأنّها تقول: "من يجرؤ على إعادتي للحياة، سيكتشف سحراً أكبر."

فجأةً، اختفى الظّل أمام أعيننا للحظة، ثم عاد يشير إلى صندوقٍ صغيرٍ مخفيّ بين رفوف المكتبة.....

اقتربتُ من الصّندوق ببطء، كأنّ الهواء حولي صار أثقل، وكأنّ المكتبة كلّها تحبس أنفاسها، كان الصّندوق خشبيّاً، صغيراً، عليه نقشٌ باهتٌ يُشبه شجرةً بلا أوراق... الشّجرة ذاتها الّتي كانت تقف قربها لارا قبل قليل.

مددتُ يدي المرتجفة، لكن لارا أمسكت يدي قبل أن ألمسه.

همست بصوتٍ يكاد لا يُسمع:

"علي... ليس علينا أن نفتح شيئاً لا نفهمه."

لكنّ الظّل...

الظّل كان يقف الآن خلفي مباشرةً، أطول منّي، أعمق منّي، وكأنّه يريد أن يعيد إليّ شيئاً سُرق منذ زمن.

فتحتُ الصّندوق.

وانتشر في المكان نورٍ خافت، يشبه ضوء شمعةٍ داخل غرفةٍ مليئةٍ بالذّكريات.

في داخل الصّندوق وجدت ثلاث أشياء:

1. دفترٌ صغير، مغطّى ببقع احتراق خفيفة.

2. صورةٌ قديمةٌ لولدٍ يشبهني حدّ الوجع.

3. رسالةٌ مطويّةٌ بخيطٍ أحمر.

ترددتُ لكن لارا قالت بثقةٍ ناعمة:

"اقرأ الرّسالة يا علي، الرّسائل لا تظهر صدفة."

فتحتها.

وكانت المفاجأة الّتي كادت توقف قلبي:

"إلى طفلي...

إذا وصلتَ إلى هذا المكان، فهذا يعني أنّك لم تنطفئ.

أعرف أنّك ستبحث يوماً عن الحقيقة، وأنّ ظلالكَ ستقودكَ إليّ.

لا تخف من الظّل فهو ليس ظلّكَ أنت.

إنّه ظّلي أنا.

" ظلّ أمّك."

تجمّدت يدي.

لارا وضعت يدها على كتفي، وهمست:

"أكمل"

تنفّستُ بصعوبةٍ، وتابعت القراءة:

"كنتُ أدرك أنّ رحلتي قصيرة، وأنّ العالم سيقسو عليكَ، لذلك تركتُ لكَ هذا الدّفتر...

هو ليس دفتراً عاديّاً يا علي.

إنّه يحمل قصص الأطفال الّذين فقدوا أصواتهم... تماماً كما فقدتُ صوتي يوم فارقتك.

إذا كتبتَ فيه، تعود القصة إلى صاحبها، ويعود معهم جزءاً من نورك."

أقفلتُ الورقة، وشعرت كأنّ شيئاً في داخلي ينهار وشيئاً آخر يولد من جديد.

لارا نظرت إلي بعينيها الهادئتين وقالت:

علي هذا ليس كتاباً للتّحليل،

هذا باب.

فجأةً عاد الظّل ليقف قربنا، لكن هذه المرّة لم يعد مظلماً

كانت أطرافه تتلألأ بنورٍ خافت، كأنّ شخصاً ما يحاول

أن يظهر من خلاله.

والأغرب، أنّ الظّل بدأ يكتب على الأرض، بخطٍ

واضحٍ كأنّه يُكتب أمامنا:

"أعدْ قصصي

ثم عُد إليّ."

وقبل أن نلتقط أنفاسنا...

اهتزّت الرّفوف من حولنا، وانفتح الكتاب القديم

وحده، وتقلّبت صفحاته بسرعةٍ هائلة، حتّى وصلتُ إلى

صفحةٍ فارغة... صفحةً بانتظار أوّل كلمة.

قالت لارا بصوتٍ يشبه بداية المعجزة:

"أعتقد أنّ هذا... هو الدّور الّذي وُلدتَ من أجله."

أمسكتُ القلم.

ظل الحكايات

الصّفحة البيضاء كانت ترتجف.

والظّل... ظلّ أمي... كان يقف خلفي، ينتظر.

قلت بصوتٍ خافت وكأنّه عهد:

سأُعيد كلّ قصةٍ للحياة.

سأُعيدهم وسأعود إليك.

وما إن كتبتُ الحرف الأوّل

حتّى ارتفعت صفحة الكتاب بنورٍ ساطع، نورٌ لم يكن من هذا العالم.

نورٌ يشبه حضن أمٍّ لم تمت أبداً.

في اللّحظة ذاتها، تغيّر الضّوء حولنا، وتلاشت رفوف الكتب تدريجياً

صفحةً بعد صفحةٍ

عنواناً بعد آخر

كأنّ المكتبة كلّها تُمحى.

نظرت إليّ لارا وقالت بصوتٍ يشبه الهمس:

علي هل تشعر أنّ شيئاً ما يدعونا أم يحاول إبعادنا؟

لم أجد جواباً.

كلّ ما شعرت به هو أنّ الزّمن لم يعد ثابتاً تحت أقدامنا.

ثم أُغلق الكتاب فجأة.

واختفى الظّل وكأنّه لم يكن.

وبقي على الطّاولة ذلك الكتاب، كتابٌ واحدٌ فقط.

الكتاب القديم لكنّه لم يكن في الصّفحة الّتي تركناه وكنت أكتب أوّل كلمةٍ بها.

كان مفتوحاً على صفحةٍ جديدةٍ تماماً، صفحةً بيضاء، خاليةً من الكتابة سوى جملةٍ واحدةٍ كُتبت بحبرٍ لم أرَ لونه من قبل:

ليس كلّ ما يُكتَب يُقرأ

وليس كلّ ما يُقرأ يُفهم

أمّا هذا فلم يبدأ بعد.

وقبل أن أرفع بصري إلى لارا

اختفى الضّوء.

وبقي السّؤال الوحيد معلقاً في الظّلام:

هل ما حدث كان بداية النّهاية

أم نهاية البداية؟

تأليف:

مروة الرعيني

إسلام فندي

فاطمة صديق

ميس الخالد

ماريا النجار

تدقيق:

فاطمة صديق

ماريا النجار

بقيادة:

فاطمة فتوح

ظلّ الحكايات

تأليف: اصدقاء القلم

مبادرة فراشة أكتوبر